بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله ، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير ، محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه .

أما بعد فلم تعرف البشرية دينًا مثل الإسلام عُنى بالعلم أبلغ العناية وأتمها : دعوة إليه ، وترغيبًا فيه ، وتعظيمًا لقدره ، وتنويها بأهله ، وحثًا على طلبه وتعلمه وتعليمه ، وبيانًا لآدابه ، وتوضيحًا لآثاره ، وترهيبًا من القعود عنه ، أو الأزورار عن أصحابه ، أو المخالفة لهدايته ، أو الازدراء بأهله .

بين القرآن والكتب المقدسة :

ومن درس الأديان السابقة على الإسلام ،أو قرأ كتبها المقدسة ، ازداد إيمانًا بعظمة الإسلام فى هذا الجانب .

إنك تقرأ « الأسفار المقدسة » فى العهد القديم أو الجديد ، فلا تكاد تقع عينك على هذه الكلمات « العقل » أو « الفكر » أو « النظر » أو « البرهان » أو « العلم » أو « الحكمة »أو ما اشتق منها ، أو تفرع عنها ، أو كان له قرابة بها .

فإذا قرأت القرآن وجدت فيه – كما يذكر « المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » – ما يلى :

كلمة « علْم » نكرة ومعرفة ذكرت (٨٠) ثمانين مرة ، أما مشتقاتها : علم ويعلم ويعلمون وعلم ، ويعلم وعليم وعلام ... الخ . فقد ذكرت مئات ومئات من المرات .

كلمة « عقل » لم ترد اسمًا أو مصدرًا فى القرآن ، وورد بديلا عنها كلمة « الألباب » وتكررت (١٦ مرة) ست عشرة مرة ، وكلمة « النّهىَ » بمعنى العقول أيضًا مرتين .

أما مشتقات «عقل» فقد تكررت فى القرآن (٤٩) تسعًا وأربعين مرة .

وكذلك مشتقات «فكر» (١٨) ثمانى عشرة مرة .

ومشتقات «فقه» (٢١) إحدى وعشرين مرة .

وكلمة «حكمة» (٢٠) عشرين مرة .

وكلمة «برهان» مضافة وغير مضافة (٧) سبع مرات .

وهذا عدا كلمات أخرى لها صلة بالعلم والفكر مثل: «انظروا» و«ينظروا» وكلمة (حجة) و(سلطان) ويقصد به سلطان العلم والبينة ، وكلمة (يقين) وكلمة (هدى) ومشتقاتها ، وكلمة (بينة) و (بينات) وكلمات أخرى ذكرت فى معرض الذم ، مثل (الظن) و(الهوى) وغيرها . مما يؤكد عناية القرآن البالغة بالجانب العقلى والمعرفى ، ويبنيه على أرسخ الأسس والدعائم [١] .

العلم فى كتب الحديث :

وإذا طالعت كتب الحديث النبوى ، وجدت فى جميع الكتب المصنفة حسب الموضوعات والأبواب – أو بتعبير ذلك العصر : الكتب – كتابًا حافلاً موضوعه « العلم» .

ففى « الجامع الصحيح» للإمام محمد بن إسماعيل البخارى (ت ٢٥٦ هـ) نجد – بعد أحاديث بدء الوحى ، وكتاب الإيمان – كتاب العلم ، وقد اشتمل كما يقول الحافظ ابنُ حجر فى «الفتح» من الأحاديث المرفوعة على مئة حديث وحديثين ، منها ستة عشر حديثًا مكرراً ، وفيه من الآثار الموقوفة على الصحابة ومَنْ بعدَهم : اثنان وعشرون أثراً .

وفى صحيح مسلم وباقى الأصول السبعة (الموطأ وسنن الترمذى وأبي داود والنسائى وابن ماجه) كتاب أو أبواب للعلم ، تقصر أو تطول .

---

(١) قد أصدرنا فى ذلك كتابًا مستقلاً ، بعنوان (العقل والعلم فى القرآن) نشرته مكتبة وهبه .

وحسبنا أن نذكر هنا أن كتاباً مثل «الفتح الربانى» فى ترتيب مسند الإمام أحمد (ت ٢٤١ هـ) قد ضم فى كتاب العلم (٨١) واحداً وثمانين حديثًا.

وأن كتاب العلم من صحيح ابن حبان (ت ٣٥٤ هـ) حسب ترتيب الاحسان قد بلغ ٦٧ حديثًا.

وأن كتاب «العلم» فى «مجمع الزوائد» للحافظ نور الدين الهيثمى (ت ٨٠٧ هـ) قد بلغ ٨٤ صفحة فى كل صفحة عدد من الأحاديث.

وفى «المستدرك» للحاكم النيسابورى (ت ٤٠٤ هـ) بلغت أحاديث العلم ٤٤ صفحة.

وأن كتاب «الترغيب والترهيب» للحافظ المنذرى (ت ٦٥٦ هـ) جمع فى كتاب العلم ١٤٠ حديثًا.

وإن كتاب العلم من «جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد» للعلامة ابن محمد بن سليمان قد ضم ١٥٤ حديثًا.

ولا يخفى أن قدراً كبيراً من الأحاديث فى كل كتاب من هذه مكرر مع أحاديث الكتب الأخرى.

ولكن ليس معنى هذا أن هذا العدد من الأحاديث فى هذا الكتاب أو ذاك هو كل ما يتعلق بالعلم.

فالواقع أن هناك عشرات ومئات أخرى من الأحاديث لها صلة بالعلم، ولكنها وضعت فى مظان أخرى من أبواب الكتاب، حيث يظهر للحديث الواحد أكثر من دلالة، ويستفاد منه أكثر من حكم.

فالحديث الذى استفدنا منه اهتمام الرسول بالإحصاء الكتابى لعدد الرجال من المسلمين هو فى صحيحى البخارى ومسلم ولم يذكر فى كتاب العلم.

والحديث الذى دل على إقرار التجربة ونتائجها فى شؤون الحياة الدنيا،

ووكل للناس أمر دنياهم ، هو فى صحيح مسلم وغيره ، ولكن لم يوضع فى كتاب العلم .

والحديث الذى دل على محاربة الرسول للأمية بتعليم أبناء المسلمين الكتابة عن طريق الأسرى ، لم يذكره من ذكره فى أبواب العلم .

والأحاديث التى أعلنت الحرب على الخرافة والسحر والشعوذة والكهانة والتمائم والرقي لم تذكر فى كتاب العلم .

والأحاديث التى عنيت بما يتعلق بالطب والتداوى ، ونحوها لم تذكر فى كتاب العلم بل فى كتاب الطب أو التداوى .

وهكذا نجد كثيراً مما يتصل بالعلم متناثراً فى أبواب كتب الحديث تحت عناوين شتى ... وما على البحاث البصير المطلع إلا أن يلتقطها من مظانها القريبة والبعيدة ، ويجمع شتاتها ، ويصنفها التصنيف الذى يوضح فكرته ، ويحقق هدفه .

وهذا هو عملنا فى هذا البحث «الرسول وموقفه من العلم» : أن نجمع الأحاديث المقبولة المتناثرة من مختلف المصادر ، وبخاصة الأصلية منها ، ودراستها دراسة علمية موضوعية ، لبيان موقف الرسول ﷺ فى السنة والسيرة من «العلم» بمفهومه العام ، أو بمفهومه الحديث .

عمدتنا الأحاديث الصحاح والحسان :

وإنما قلت « الأحاديث المقبولة »، لأن الأحاديث الموضوعة، والتى لا أصل لها، والضعيفة جداً، لا يجوز الاستشهاد بها عند أحد من العلماء، ولو كان ذلك فى فضائل الأعمال.

أما الأحاديث الضعيفة فقط، فقد أجاز جمهور العلماء الاستفادة منها فى فضائل الأعمال، أى فى الأمور التى لا يترتب عليها حكم، ولا يُؤخذ منها حلال ولا حرام.

ولهذا نرى الحافظ الفقيه ابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ) فى كتابه « جامع بيان العلم وفضله » يذكر كثيراً من الأحاديث الضعيفة ثم يعقب عليها بمثل قوله :

« والفضائل تروى عن كل أحد، والحجة من جهة الإسناد إنما تتقصَّى فى الأحكام، وفى الحلال وفى الحرام ».

وهذه الفكرة جعلت الأحاديث الضعيفة تزحف على الأحاديث الصحاح والحسان وتطغى عليها، هذا مع عدم الحاجة إليها، لأن فى الأحاديث المقبولة من الصحاح والحسان ما يغنى عنها.

ولم يتقيد الأكثرون بما اشترطه أئمة المحدثين عند الاستشهاد بالحديث الضعيف. وهو: ألا يكون ضعيفا جداً، وأن يندرج تحت أصل كلى ثابت، وألا يعتقد ثبوته بل الاحتياط.

على أننا حين نريد أن نجلى موقف الإسلام، أو موقف الرسول من أمر من الأمور، فلا بد أن نعتمد على الصحيح والحسن، لأن الضعيف لا يتبين منه موقف، كما لا يُبنى عليه حكم.

عملنا التمحيص والاستنباط:

ولهذا كان عملنا فى هذا البحث مزدوجاً، وهو تمحيص ما يستشهد به من الأحاديث وبيان درجتها بإيجاز واختصار، ثم يأتى استنباط الحكم أو المعنى المراد منها.

فالواجب أولاً إثبات النص وتوثيقه، ثم استخراج الدلالة منه.

ومن الباحثين من يحسب أنه يكفيه فى التوثيق العلمى أن يسند الحديث أو النص المنقول إلى كتاب معروف، مبيناً الجزء والصفحة والطبعة، معتبراً أن ذلك هو غاية التوثيق، ونهاية التحقيق والتدقيق، كما يفعل الكثيرون ممن ينقلون عن كتب التفسير، أو التصوف، أو الفقه، أو حتى كتب الحديث التى لم يلتزم مخرجوها الصحة فيما يروونه منها، فلا يكفى هنا لقبول الحديث مجرد نقله من كتاب، وصحة نسبته إليه.

ومثل هذا يقع فيه الذين يكتبون التاريخ، ومبلغ التحقيق عندهم نسبة ما

ينقلون إلى الطبرى أو ابن الأثير أو غيرهما، – مع أن فى هذه الكتب المقبول والمردود، والغث والسمين.

انتشار الأحاديث الواهية:

ولقد لاحظت انتشار عدد كبير من الأحاديث الواهية عند كثير من المتحدثين عن العلم أو الكاتبين فيه، وذلك لاعتماد الكثيرين منهم على النقل من الكتب التى تذكر فى كل موضوع – ما تجده من حديث دون اشتراط صحته، ولا بيان درجته.

وأظهر مثال لذلك هو «إحياء علوم الدين» للإمام أبى حامد الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) الذى يرجع إليه الكثيرون من الوعاظ والكتاب، فقد ذكر فى فضيلة «العلم» و«التعلم» و «التعليم» نحو (٥٥) خمسة وخمسين حديثًا (١٣) ثلاثة عشر منها صحيح أو جسن، والباقى ضعيف، رغم اشتهاره جدًا على الألسنة والأقلام.

وأحمد الله أنى لم أحتج فى هذا البحث إلى الضعيف المردود، فقد أغنانى الله بالصحيح والحسن، وهو موفور غير قليل، وإذا ذكرت حديثًا على غير هذا الشرط، فذلك فى الغالب لمجرد الاستئناس، ومع بيان درجته، فليس هو العمدة.

وإنما اقتصرت على بيان موقف السنة النبوية من العلم، لأن بيان موقف القرآن الكريم من العلم يحتاج إلى بحث آخر، لعلى أوفق فى إخراجه فى سلسلة «التفسير الموضوعى للقرآن» [1] فعسى أن يجد القارئ الكريم ما قصدت إليه واضحًا فى هذه الصحائف، ويرى فيها نهج الإسلام، وهدى الرسول الكريم بينًا واضح المعالم.

هذا وقد قسمت البحث إلى خمسة أقسام:

الأول: فى بيان منزلة العلم والعلماء.

---

(١) قد صدر والحمد لله، كما أشرنا سابقا.

الثانى: موقف الرسول من العلم التجريبى.

الثالث: فى أخلاقيات العلم.

الرابع: فى التعلم وآدابه.

الخامس: فى التعليم ومبادئه وقيمه.

فلنشرع فى بيانها - وعلى الله قصد السبيل، ومنه العون، وبه التوفيق.

يوسف القرضاوى

obeikandl.com